



قد يتadar لذهن القارئ من عنوان هذا المقال أني بقصد السخرية فيه من اللهجة العلوية التي يميزها استعمال حرف (القاف) أكثر من غيره والتي باتت تعرف في سوريا بلغة (المقاقة). ولكن بالتأكيد ليست بهذا الصدد، فكل مدينة أو منطقة لها لهجتها التي تميزها، وكذلك هو الحال في كل دول العالم.

طبعاً لا أحد ينكر من جهة ثانية أن وحشية النظام ولصوصيته في آن واحد، والصور (المفزعـة) التي قدمها (الأسد الأـب والـابن) على أنها تمثل أبناء الطائفة وأوجزتها في مقالـي السابقـ، قد جعلـت من تلك اللهـجة المرادـفـ (الـسمـعـيـ) لتلك الصورـ. ولذلك وبـسببـ عدمـ تمـكـنـ الشـعـبـ خـلـالـ أـربـعـةـ عـقـودـ مـنـ مـقاـوـمـةـ النـظـامـ إـذـاحـتـهـ بـالـطـرـقـ السـلـمـيـ وـالـديـمـقـراـطـيـ، فقدـ وـجـدـ فـيـ أـسـلـوبـ (الـسـخـرـيـةـ)ـ مـنـ هـذـهـ اللهـجـةـ وـأـصـحـابـهاـ وـتأـلـيفـ النـكـاتـ الـلـازـعـةـ عـنـهـ وـعـنـهـمـ مـنـتـفـسـاـ طـبـيعـاـ وـسـلـاحـاـ لـيـسـ لـدـيـهـ غـيرـهـ. فـإـلـنـسانـ حـيـنـ لـاـ يـتـمـكـنـ مـنـ رـفـعـ الـقـهـرـ الـمـفـروـضـ عـلـيـهـ، يـلـجـأـ لـمـحـارـبـةـ خـصـمـهـ بـتـحـقـيرـهـ وـالـسـخـرـيـةـ مـنـهـ بـأـيـ وـسـيـلـةـ. حـصـلـ فـيـ سـوـرـيـةـ فـيـ النـصـفـ الثـانـيـ مـنـ السـبـعينـيـاتـ أـنـ بـدـأـتـ وـحـشـيـةـ نـظـامـ (الـأـسـدـ الـأـبـ)ـ وـسـادـيـتـهـ اـتـجـاهـ الشـعـبـ تـظـهـرـ أـكـثـرـ وـضـوـحـاـ، فـصـارـتـ صـورـةـ (الـعـلـويـ)ـ مـوـازـيـةـ لـصـورـةـ (عـزـرـائـيلـ)ـ أـوـ (غـرـابـ الـبـيـنـ)، وـأـنـتـ مـجـزـرـيـ (سـجـنـ تـدـمـرـ)ـ 1980ـ ثـمـ (حـماـةـ)ـ 1982ـ لـتـكـرـسـ تـلـكـ الصـورـةـ وـتـجـعـلـ صـاحـبـهاـ فـيـ الـمـجـتمـعـ السـوـرـيـ رـجـلـاـ يـتـمـتـعـ بـسـلـطـةـ مـطـلـقـةـ، مـنـ رـئـيـسـ النـظـامـ فـيـ القـصـرـ الـجـمـهـوريـ إـلـىـ إـلـذـنـ فـيـ الـوزـارـةـ وـمـرـوـرـاـ بـمـنـ بـيـنـهـماـ.

وـقـدـ لـاحـظـ الـكـثـيرـ مـنـ السـوـرـيـينـ (غـيرـ الـعـلـويـينـ)ـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ مـقـدـارـ (الـقـوـةـ الـلـامـحـدـوـدـةـ)ـ الـتـيـ وـضـعـهـ (الـأـسـدـ الـأـبـ)ـ فـيـ أـيـديـ أـفـرـادـ طـائـفـتـهـ، وـالـتـيـ بـالـرـغـمـ مـنـ أـنـهـ كـانـ قـوـةـ شـرـيرـةـ، وـلـكـنـهـ تـبـقـيـ (ـقـوـةـ)ـ أـغـرـتـ أـفـرـادـاـ مـنـ بـقـيـةـ الـطـوـافـيـنـ بـحـيـازـتـهـ، فـقـرـرـوـاـ حـيـازـتـهـ بـوـاسـطـةـ ...ـ (ـتـقـلـيدـ لـهـجـةـ)ـ أـصـحـابـهاـ.

وـكـثـيرـاـ مـاـكـانـ يـحـصـلـ فـيـ الطـوـابـيـرـ أـمـامـ الـأـفـرـانـ أـوـ الـمـؤـسـسـاتـ الـاـسـتـهـلاـكـيـةـ أـوـ مـرـاكـزـ تـوزـيعـ الغـازـ أـوـ الـمـازـوـتـ، أـنـ تـرـىـ مـنـ تـعـرـفـهـمـ حـقـ الـمـعـرـفـةـ أـنـهـمـ لـيـسـوـاـ مـنـ (ـجـمـاعـةـ)ـ وـلـكـنـهـمـ مـعـ ذـلـكـ يـدـفـعـونـ النـاسـ جـانـبـاـ وـهـمـ (ـيـقـاقـونـ)ـ لـيـصـلـوـاـ إـلـىـ الـمـقـدـمةـ وـيـأـخـذـوـاـ طـلـبـهـمـ قـبـلـ الـواـقـفـيـنـ، دـوـنـ أـنـ يـتـجـرـأـ أـحـدـ حـتـىـ عـلـىـ النـظـرـ فـيـ أـعـيـنـهـمـ.

فـأـصـبـحـتـ تـلـكـ اللهـجـةـ أـوـ الـلـغـةـ مـعـ مـفـرـدـاتـهـ (ـمـوـضـةـ)ـ تـعـلـمـهـاـ الـكـثـيـرـونـ وـبـاـتـواـ يـسـتـعـمـلـوـهـاـ بـمـنـاسـبـةـ وـبـلـاـ مـنـاسـبـةـ لـإـخـافـةـ الـآخـرـينـ وـتـحـقـيقـ غـايـاتـهـمـ.

وربما لو اقتصر استعمال تلك اللهجة من قبل هؤلاء على طوابير الخبز والغاز وماشابها لكان ذلك (نص مصيبة) كما يقولون، ولكنه امتد ليشمل أعمال (احتيال) باتت تمثل مهنة رسمية في ذلك الوقت. وكانت قد درجت في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات (موضة) ثانية وهي بيع صور وتماثيل وأقوال (الرفيق القائد) للمقدرين من التجار وأصحاب المعامل والشركات، حيث التقيت ببعض الأشخاص في الجامعة وخارجها من أهل دمشق من السنة الذين كانوا يمارسونها ويغتربون بها.

كانت (عدة النصب) كما قالوا هي عبارة عن تلك البضاعة الرخيصة إلى جانب (اللهجة) التي يكون صاحبها قد تمرن عليها بالقدر الكافي لإرهاب ضحاياه.

وروى لي أحدهم أن كل مكان يفعله هو حمل تلك البضاعة إلى المحل والشركات حيث يبدأ بمجرد دخوله (بالمقافاة) معهم وتقديم الصورة أو التمثال كهدية من (فلان) من فرع المخابرات (الفلاني) وأن (فلان) هذا يتوقع منه (تبرعاً للمشروع الوطني الفلاني) يوازي مايراه (القيمة الاعتبارية) للصورة أو التمثال.

وطبعاً فلن يجرؤ (الضحية) هنا على دفع مبلغ صغير، وإن سيتهم بعدم حبه أو تقديره (للرئيس المفدى) لا سمح الله. وعادة ما يكون (اللص) على علم مسبق بإمكانية (الضحية) المادية، وبالتالي فلا يقبل منه إلا مايعتقد أنه يوازي تلك الامكانية. هذا وكان هؤلاء اللصوص يقومون في أغلب الأحيان، حماية لأنفسهم، إلى تنسيق أعمال نصبهم مع أفراد يعملون في أفرع المخابرات مقابل تقاسمهم (الغلة) معهم في نهاية الأسبوع أو الشهر.

وقد وصلت هذه الظاهرة إلى حد أن هؤلاء باتوا يتفاخرون بمدى إجادتهم اللهجة بحيث يتذرع على أحد كشفهم، أو أنهم ماعادوا يستطيعون التوقف عن استعمالها حتى مع أفراد عائلاتهم، فصارت بمثابة لغة ثانية لهم وصاروا يعتبرون أنفسهم من متكلمي اللغات الأجنبية المتعددة.

ومن جهة ثانية فإن ضحايا أعمال الاحتيال هذه باتوا يعرفون مسبقاً نية زائرهم هذا حين يرون البضاعة إليها في يده وحين يبدأ بالحديث معهم باللهجة إليها، فيفتحون صناديقهم ويدفعون (الخوة) بسرعة بلا إضاعة للوقت ويوصون الزائر أن يسلم على صديقه (فلان).

وهذه المصيبة تضاف إلى بقية المصائب التي أفرزها النظام الأسدي المafيوي في سوريا، وهي إفساد الناس أخلاقياً وقتل ضمائرهم لدرجة أنهم صاروا يسرقون حتى اللهجة بهدف سرقة الأموال.

حين كنت تواجه أحد هؤلاء وتسأله كيف يفعل مايفعله ولماذا، يقدم لك العديد من المبررات مثل: لست الوحيد الذي يقوم بذلك، وحلال على الشاطر، وإذا لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب، ثم يختم جوابه مازحاً (قرد ولو، مرقلنا ياه هالمرة).

حساب هذه الحالة يجب أن لايهمل ويجب أن يكون جنباً إلى جنب مع حساب أصحاب اللهجة الأصليين ممن صفت مع النظام وقتل ونهب الشعب باسمه.

المصادر: